الفصل الثاني

من أسرار التقديم في الذكر الحكيم

آثرت أن تكون دراستي للتقديم في نظم القرآن الكريم محصورة في ذلك النوع من النظم الذي لا تحكم ترتيب ألفاظه قواعد النحاة ، ولا يترتب على مخالفة نظمه إخلالات بدلالات الألفاظ على المعاني ، أو نتوء في نسيج العبارة وتلاحم أجزائها ؛ فالتقديم ـ كما قال ابن الأثير ـ ضربان : الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني ، ولو أُخِّر المُقدَّم ، أو قُدِّم المُؤخَّر لتغير المعنى ، والثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر ، لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو أخر لما تغير المعنى[1] .

فالضرب الثاني هو مجال دراستنا ، وأعني به ما جاء من الألفاظ أو الجمل منسوقًا بواو العطف ، وهي على ما قرره جمهور النحاة لا تقتضي ترتيبًا ، ولا تدل على غير مطلق الجمع ، ومن ثَمَّ فإن البحث في أسباب التقديم والتأخير معها لا يعتمد على غير الحس المرهف في إدراك الدواعي والأغراض ، والتسمع في حذر إلى ما يشي به السياق ، والفطنة في إدراك ما تهمس به القرائن .

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٦ .

هذا النوع من التقديم بما يتطلبه من الاستجابة لأحوال المخاطبين ، والوفاء بأغراض المتكلم ومراميه ، هو المجال الأمثل لإبراز التفاوت بين أسلوب وأسلوب ، وتفوق نظم على نظم ، وللقرآن فيه من الافتنان والإبداع ما يشهد على إعجازه .

والسابقون لهم في مجال الدراسة محاولات جادة ، وجهود مشكورة ، بعضها منشور في كتب المفسرين ، وفي طليعتها كشاف الزمخشري ، وبعضها مباحث في كتب عالجت أسباب التقديم والتأخير معتمدة على أساليب الذكر الحكيم ، كما في « نتائج الفكر » للسهيلي ، و« المثل السائر لابن الأثير » ، و« الطراز » للعلوي ، و« معترك الأقران » للسيوطي ، وبعضها في كتب عنيت بالمتشابه من آيات القرآن ، وفي مقدمتها « درة التنزيل وغرة التأويل » للخطيب الإسكافي .

وقد حاول بعض هؤلاء الأعلام أن يضعوا ضوابط لتقديم بعض المعطوفات على بعض حتى يأتي ترتيب الألفاظ في الذكر مواكبًا للحركة الذهنية ، والانفعالات النفسية ، ضمانًا لحسن التواصل وسرعة الاستجابة بين المنشئ والمتلقي ، وللسهيلي في ذلك كلام طيب يقول فيه : « ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقديم المعاني في الجنان ، والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء ؛ إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال ، فإذا سبق من المعاني إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة ، أو بأكثرها سبق اللفظ الدال على المعنى السابق ، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك »[1] .

غير أن هذه الأسباب الخمسة أو العشرة ، كما وصلت عند السيوطي في « معترك الأقران » ، لم تكن كافية في تفسير الكثير من مواطن التقديم والتأخير في الكتاب العزيز مما يخالف ترتيبه ظاهر هذه الأصول ، وهو ـ فيما أرى ـ آية الإعجاز في الذكر الحكيم .

---

(١) نتائج الفكر ٢/٢١٣ .

(٢) معترك الأقران ١/١٧٥ .

الإنس والجن :

من هذه الضوابط أن يقدم الأفضل إلماحًا إلى شرفه ، وتذكيرًا بفضله ، وقد عدَّ السيوطي من ذلك « تقديم الإنس على الجن حيث ذكرا في القرآن »[٢].

ولعل السيوطي ـ رحمه الله ـ يعني أن ما جاء في القرآن مقدمًا فيه الإنس ، فإن التقديم فيه للتشريف وإلا فإن هناك كثيرًا من الآيات تقدم فيها الجن على الإنس ، وقد أحصيت من ذلك تسعة مواضع ذكر فيها الجن مقدمًا ، مقابلة بثمانية مواضع تقدم فيها الإنس ، ولكل موضع أسراره ودواعيه ، فحيث يكون الحديث عن الغواية والإضلال ، والتمرد على الله والاجتراء على سلطانه فإن الجن أحق بالسبق ، وأجدر أن يتقدموا الصفوف . نلمس ذلك واضحًا في قوله تعالى : ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ (الرحمن:٣٣) . فالجن هم الذين يُتخيَّل فيهم القدرة على النفاذ ، ويُتصوَّر منهم استطاعة الهرب ، بما ميزهم الله عن الإنس من قدرات عجيبة ، أمكنهم أن يصلوا بها إلى السماء الدنيا في محاولة لاستراق السمع قبل مبعث النبي ـ عليه السلام ـ وهم بذلك أحرى أن يكونوا أول من يواجه بالتحدي ، وأن يوضعوا في مقدمة من يعجزهم الله بقدرته وعظيم سلطانه .

وحين يكون مجال التحدي فيما يتفوق فيه الإنسان ، ويتفق مع مواهبه وقدراته يقدم الإنس بحسبانهم المقصودين أساسًا بالتحدي، كما في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾ (الإسراء:٨٨) .

حيث المتحدى به كلام من جنس ما ينطق به الإنسان ، وبيان من لغة قوم من الإنس هم أرباب الفصاحة والبيان ، فناسب أن يقدم الإنس ، لأنهم أصحاب هذه الموهبة ، والمظنون بهم القدرة على خوض غمار هذا التحدي ، وذلك ما كشف عنه الرازي في تفسيره آية الرحمن ، فقال : « ما الحكمة في تقديم

الجن على الإنس ههنا ، وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ . تقول : النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن ، والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن ، فقدم في كل موضع من يظن به القدرة على ذلك »[1] .

ولنفس الغرض قدم الجن في قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل:١٧) لأن الأظهر في الدلالة على عظمة ملك سليمان ، وما وهبه الله من النفوذ والسلطان هو تسخير الجن له ، يخضعون لأمره ، وينخرطون في سلك أتباعه وجنوده ، فكان تقديمهم على الإنس أدعى للدلالة على هذا الغرض .

وكم يروعنا سر الإعجاز القرآني حين تقرأ ما جاء على لسان الجن أنفسهم مقدمين ذكر الإنس فيما حكاه القرآن عنهم : ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (الجن:٥) . إن الكذب والاجتراء على الله تعالى أليق بطبائع الجن ، غير أن تقديمهم للإنس جاء تصويراً لدهشتهم حين استمعوا إلى القرآن ، وأخذوا بجلاله ، وسرت روح الصدق واليقين في أوصالهم ، فصرخوا متعجبين : كيف يجرؤ المخلوق على خالقه ، وتفترى الصنعة الكذب على صانعها ، ولأن يحدث ذلك من الإنسان أعجب وأغرب ، فهو الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، فكيف يقابل الإحسان بالإساءة؟ ولِمَ يرد على تكريم الله له بالتقاول عليه؟ إن تقديم الإنس جاء بمثابة استنكار شديد لوقوع ذلك منهم ، حيث كان المتوقع ألا يشاركوا الجن في هذا الجرم .

وفي معرض الحديث عن الغواية والإضلال والوسوسة في الصدور بالشرور والآثام ، يتقدم الجن على الإنس ، كما نجده في قوله جل شأنه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤

---

(١) التفسير الكبير ١١٣/٢٩ .

﴿ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ (الناس:١-٦) لما كان الجن هم الأقدر على النفاذ إلى نفوس البشر، وتزيين الشر في أعينهم، وكان الإنس في ذلك أتباعًا لهم وأذنابًا، وجب تقديم الجن، كما يتقدم المتبوع على تابعه.

وربما يلبس علينا تقديم الإنس في موضع شبيه بهذا الموضع، هو قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِى بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا ﴾ (الأنعام:١١٢).

ولكننا حين ننعم النظر يستبين لنا فرق ما بين الموضعين؛ فشيطان الجن لا سلطان له على أنبياء الله، فهم معصومون من التأثر به، وغاية ما يصنعه من الكيد لهم أن يوسوس لإخوانه من شياطين الإنس، ينفث في صدورهم ويؤلبهم عليهم، ويدفعهم إلى حربهم والوقوف في سبيل دعوتهم، لذلك تقدم الإنس باعتبارهم مظهر الشر والإيذاء في مواجهة النبيين، وقد روي عن مالك بن دينار قوله: إن شيطان الإنس أشد عليَّ من شيطان الجن، لأني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عني، وشيطان الإنس يجيئني، فيجرني إلى المعاصي عيانًا[1].

إن هناك فرقًا بين محاولات الشياطين إغواء الصالحين من عباد الله، ومحاولاتهم مع مَنْ لديهم استعداد للضلال وقبول الغواية، الأولى لا أثر لها ولا خطر منها تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾، والثانية قوية الأثر، شديدة الخطر، كما ينطق به عَجُز الآية ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾. وقد تجاوب نظم القرآن مع الحالين، فقدم الإنس حين كان الإغواء في مواجهة الصالحين، مُشعرًا بخطرهم في محاربة دعوات الإصلاح، والوقوف في وجه المصلحين، وقدم الجن حين كانت الغواية لذوي الفطرة المنتكسة، والأنفس النزاعة إلى الهوى والرذيلة، حيث يكمن الخطر في وسوسة شياطين الجن أصالة، ثم في أوليائهم من الإنس تبعًا. يتضح ذلك في

(١) الكشاف ٢/٤٥.

قول الغاوين يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ (فصلت:٢٩) مقدمين من هم أعرق في الغواية وأوغل في الإضلال ، وقدمهم الله كذلك في بيان مصيرهم المحتوم ﴿ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ (فصلت:٢٥)، وثمة موضع يدق فيه النظر ، ويحتاج إلى كثير من التأمل لإدراك سر التقديم فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦،٥٧) فالشأن أن الطاعة والعبادة في عالم الإنس أظهر ، وهم بها أحق وأجدر ، ومع ذلك تقدم الجن على الإنس ، إلا أن المتتبع للسياق ، والمُنقّب عن أغراض النظم يدرك أن الآية مسوقة لبيان عظمة الخالق ، واستغنائه عن خلقه ، وتقرير أنه لا نفع له بطاعة ، ولا ضرر يلحقه من معصية ، فإذا كانت الغاية من خلق الجن وهم المعروفون بالتمرد والعصيان هي العبادة ، وإذا كان الجن ـ بما يعلمه الإنسان ويتخيله عنهم من قدرات عجيبة ـ مفتقرين إلى الله تعالى في معاشهم واستمرار وجودهم ، فما أحرى أن يكون البشر مقهورين بسلطان الله ، مفتقرين إلى رحمته ، متوجهين إليه بالعبادة التي خلقوا من أجلها؟ يقول العلوي : « إنما قدم الجن ههنا لما كان المقام مقام خطاب بامتثال الأوامر في العبادة من قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ ، فقدمهم لما كانت المخالفة منهم في العبادة أكثر من الإنس »[1].

وفي مقام تعديد نعم الله على الإنسان وما سخر له في السماء والأرض قدم حديث خلقه عن خلق الجان ، مع أن الإنسان مسبوق في بدء خلقه ، وهذا ما جاء في سورة الرحمن ، حيث بدأت بتعديد نعم الله على الإنسان : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ ثم انتقلت

(١) الطراز ٢/٦٢ .

إلى الحديث عن منشأ الإنس والجن ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (الرحمن:١٤،١٥) فقدمت خلق الإنسان ، لأن الحديث فيه ، وهو المقصود أصالة والمتلقي للقرآن ابتداء . ولنفس السبب تقديم خلق الإنسان في سورة الحجر ، حيث بدأت كما بدأت سورة الرحمن بالحديث عن نعمة القرآن ﴿ الٓرٓ ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ ثم استمرت في تعديد نعم الله على الناس ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ (الحجر:١٦-٢٠) ، ثم وصلت بذلك الحديث عن خلق الإنس والجن ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ (الحجر:٢٦،٢٧) .

فتقدم الإنس باعتبارهم المقصودين بالحديث أصالة ، والمخاطبين بالقرآن ابتداء من دون التفات إلى ما سبق الجن في الوجود ، التقاء بالإشارة في قوله ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ، ودون اعتبار لشرف المادة التي خلق الجن منها ، تعويلاً على أن الشرف والفضل في الطاعة والعمل الصالح .

وقد تغير ترتيب النظم حين جاء الحديث عقب ذلك على لسان إبليس ليبرز مفهوم إبليس ورؤيته لمقاييس الفضل والتقدم ، وهي عنده تكمن في شرف العنصر ، وسمو المنبت ، فقال فيما حكاه القرآن على لسان إبليس مبررًا إباءه عن السجود لآدم : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف:١٢) فقدم خلقه على خلق آدم تأكيدًا لدعواه الفضل عليه بشرف المادة التي خلق منها .

السماء والأرض :

من المواضع التي خفي أمر التقديم والتأخير فيها تقديم السماء على الأرض

تارة ، وتقديم الأرض تارة أخرى ، ولما كان تقديم السماء هو الغالب في الذكر الحكيم اعتبره المفسرون والبلاغيون أصلاً في التقديم ، لما أن السماء أعظم خلقًا ، وأدل على قدرة خالقها .

وفي محاولة لاستقصاء المواطن التي جمع فيها القرآن بين السماء والأرض في صورة عطف بالواو وجدت أنها تجاوزت المائتين ، وليس من بين هذه المواضع ما تقدمت فيه الأرض سوى ثلاثة عشر موضعًا ، وهي حقيقة تؤكد كون السماء هي الأصل في التقديم ، وقد وجدت لبعض هذه المواضع تعليلاً عند المفسرين والمشتغلين بالدراسات القرآنية ، وبذلت جهدي في استكشاف أسرار بعضها الآخر مما لم أجد له عند أحد تفسيرًا .

١- قال تعالى في سورة يونس : ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ** ﴾ (يونس:٦١) .

وقد لفت تقديم الأرض في هذه الآية أنظار المفسرين والباحثين ، نظرًا لأنها تشتبه في نظمها مع آية أخرى ، وتختلف معها في تقديم الأرض على السماء ، وهي قوله تعالى من سورة سبأ : ﴿ **عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ** ﴾ (سبأ:٣) .

تعرض الخطيب الإسكافي لبيان سر التقديم والتأخير في الآيتين فقال : (إنما قدم ذكر السموات على الأرض في سورة سبأ ، لأن هذه الآية مبنية على مفتتح السورة وهو ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْءَاخِرَةِ** ﴾ (سبأ:١) فقدم ذكر السموات ، لأن ملكها أعظم شأنًا ، وأكبر سلطانًا ، وكذلك الآية التي بعدها في سورتها ، وأما التي في سورة يونس فإنها جاءت عقب قوله ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا**

﴿ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، فكان القصد إلى ذكر علمه بما يتصرف فيه العباد من خير أو شر ، وذلك في الأرض ، فأتمه بقوله ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، واستوعب جميع ما في الأرض ، ثم أتبعه ذكر السماء ، لأن الابتداء وقع بما يتعلق بها ، وما يعمل العباد فيها ، فلذلك قدمت الأرض عليها[1] .

وهذا كلام جيد وفهم دقيق لخصائص النظم القرآني ، وما يمتاز به من تآخي مفرداته وجمله ، واستدعاء مطالعه لمقاطعه ، ولعل زيادة « من » في آية يونس في قوله ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ وحذفها من آية سبأ دليل على هذا الانسجام والتناسب الذي يمتاز به أسلوب القرآن الكريم ، فتأمل معي أثر التناسق بين الجمل الثلاث ﴿ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ ، وحاول أن تُسْقط من الجملة الأخيرة حرف الجر كما سقط من آية يونس ، وحينئذ ستجد أثر ذلك عثرة في أذنك من جراء فقد التوازن الموسيقي وفقدان التناسب فيما تؤديه من تأكيد العموم في إحاطة علمه تعالى بشئون خلقه وشهادته على كل ما تتحرك به جوارحهم ويدور في خواطرهم .

٢- وشبيه بهذه الآية قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم:٣٨)؛ فقد جاءت هذه الآية في دعاء إبراهيم وهو يودع ابنه وزوجه في صحراء مكة ويستودعهما ربه ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ ، فكان جواب الله له ﴿ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

(١) درة التنزيل ص٣٨٦ .

﴿ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ بمثابة يد حانية تربت على كتف إبراهيم ، تهدئ من روعه وتطمئنه أنهما في رعاية من لا تخفى عليه خافية في الأرض التي انبعث منها هذا النداء ، ولا فيما هو أعظم ملكًا وأعظم سلطانًا من الأرض وهي السماء ، فتقدمت الأرض لأنها هي التي خرج منها هذا الدعاء ولمن فيها كان الجواب .

٣- أما قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (آل عمران:٥) فقد جاء بمثابة تهديد للكافرين ممن قابلوا وحي الله ورسله بالإعراض ، وألبسوا الحق بالباطل ، فاتبعوا ما تشابه من آيات الله ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ففضح بهذه الآية مكنون صدورهم ، ولوح لهم بسيف العقاب الذي ينتظرهم جزاء كفرهم ، وقد سبق هذه الآية قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ (آل عمران:٤) فناسب أنْ تقدم الأرض وهي موطن الضالين ممن تتوعدهم الآية بشديد العقاب .

يقول الألوسي تعليلاً لتقديم الأرض في هذه الآية : « وتقديم الأرض على السماء ؛ إظهارًا للاعتناء بشأن أحوالها ، واهتمامًا بما يشير إلى وعيد ذوي الضلالة منهم ، وليكون ذكر السماء من باب العروج »[1] .

٤- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (البقرة:٢١،٢٢) .

الآيات دعوة إلى عبادة الله ، وبيان لموجبات العبادة من النعم التي أسبغها الله على من تَعبَّدهم ، وقد رتبت هذه النعم حسب سَبْقِها في الوصول إلى الإنسان ، وأولاها خلقه سويًّا يستمتع بما أمده الله من فضله ، وثانيَها تلك الأرض التي مهدها الله وهيأها لتكون مفترشًا له ومنقلبًا ، وثالثَها سماء تظله ،

---

(١) روح المعاني ٣/٧٨ .

(٢) الكشاف ١/٢٣٣ .

وهي أشبه بسقف بيت ، والسقف تال للبناء على الأرض ، ومن ثَمَّ قدمت الأرض ، لأنها أول ما تقع عليه عين الإنسان من نعم خالقه .

ورحم الله الزمخشري فقد أتى بما لا نزيد عليه ، قال : « قدم سبحانه من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولاً ، لأنه سابقة أصول النعم ، ومقدمتها ، والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما ، ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لابد لهم منه ، وهي بمنزلة عَرْصَة المسكن ومتقلبه ومفترشه ، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار »[٢] .

في هذه الآيات دعوة إلى التأمل والتفكير في آثار الخلق وصولاً إلى الإيمان بالخالق ، وتوجيه لأنظار الناس ـ وخاصة العرب الذين كانوا أول من تلقى القرآن ـ إلى ما بين أيديهم من الإبل التي هي قوام الحياة في البادية ، وهي خلق من الأحياء عجيب ، في قدرتها على النهوض بالأثقال على ظهورها ، وحملها إلى بلاد لا يبلغها الإنسان إلا بشق الأنفس ، وصبرها على العطش أيامًا طوالاً ، وهي مع قوتها مسخرة منقادة ، لا تستعصي على الضعيف ، ولا تمانع الصغير ، فكان البدء بها بدءًا بأقرب شيء إلى نظر العربي من عالم الأحياء ، ثم وجه نظرهم إلى قدرة الله في خلق الجمادات بادئًا بما هو أعظم خلقًا وأدل على قدرة الخالق ـ وهي السماء التي رفعت بغير عمد يرونها ما يمسكها إلا الله ، ثم ترتد أبصارهم إلى العالم السفلي فيكون أول ما تقع عليه منه تلك الجبال الشم المنصوبة على الأرض أوتادًا حتى لا تميد بساكنيها ، ثم يستقرون بأبصارهم على الأرض ، فيرون كيف بسطها وهيأها موطنًا لسكناهم ، ومتاعًا لهم ولأنعامهم .

فالترتيب هنا جاء مواكبًا لسبحات الفكر ، وخطرات النفس ، وحركة البصر في تقلبه بين المشاهدات من آثار خلق الله .

٥- وتقدم ذكر الأرض في قوله تعالى : ﴿ **وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ** ﴾ (هود:٤٤) ، حيث تصور الآية نهاية الطوفان في قصة نوح ـ عليه السلام ـ على حين تقدمت السماء في تصوير الله بداية هذا الطوفان ﴿ **فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ** ﴾ (القمر:١١،١٢) .

وفي تعليل تقديم الأرض في الآية الأولى يقول صاحب المنار : « ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل ، نظرًا إلى كون ابتداء الطوفان منها ، حيث فار تنورها أولاً » [(١)] .

وهذا التعليل مما لا يستريح إليه ضمير الباحث ، إذ إن دعوى ابتداء الطوفان من الأرض يردها وصف الله تعالى بداية هذا الطوفان في سورة القمر ﴿ **فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۝١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا** ﴾ ، ولما كانت السماء هي الأصل في نزول الماء ، والمصدر المعتاد لإمداد الأرض وأهلها بما يستقون أو إنزاله سيولاً تدمر من يشاء من خلقه ، كما تصوره الآية الكريمة ﴿ **فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ** ﴾ وجب بمقتضى البلاغة أن تقدم السماء ، وكما كانت بداية الطوفان دليلاً على عظمة القدرة الإلهية في تحويل الأرض إلى محيط متلاطم الأمواج في أقل من طرفة عين ، أظهر الله نفس القدرة في إخفاء هذا الطوفان بمثل ما ظهر به ، ولكي تظهر استجابة الأرض والسماء في تنفيذ أمر الله توجه النداء من الله للأرض أولاً أن تبلع ماءها ، ولم يصدر إليها الأمر بالكف عن تفجير الماء ؛ لأن الكف وحده يعني بقاء ما عليها من الماء ، وذلك لا يحقق الغرض من إزالة كل أثر للطوفان على وجه الأرض ، ثم جاء بعد ذلك نداء السماء وأمرها بأن تكف عن إرسال مائها ، حتى لا تعوض السماء ما تبتلعه الأرض ، ومن المعلوم المشاهد في حياة الناس أن المدن التي تتعرض لنزول الأمطار ويكون لديها منافذ صناعية لابتلاع الماء لا تتوقف فيها الحياة ، مهما

---

(١) تفسير المنار ٩٨/١٢ .

كانت الأمطار غزيرة ، بخلاف غيرها مما ليست لديها هذه المنافذ ، فإن قليلاً من الأمطار يعوق الحياة فيها ، ومن ثَمَّ كان تقديم السماء في بدء الطوفان هو الأهم . ولو عكس الترتيب وأُمِرت السماء أولاً بالإقلاع لظل خطر التدمير قائمًا ، خاصة بعد أن وصل الماء إلى المستوى الذي اختفت معه الجبال ، وهذا يفسر سر اختيار «أقلعي» في أمر الأرض و«ابلعي» في أمر السماء وهو وحده كاف في الإبانة عن الفرق بين أثر النداءين .

٦- ومما تقدم فيه ذكر الأرض قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (العنكبوت:٢٢) .

الخطاب في الآية لقوم إبراهيم حين تمردوا على الله تعالى وصدوا عن دعوته ، وحاربوا نبيه ، فتهددهم الله بالانتقام ، وتوعدهم بعدم الإفلات من عقابه حيث لا مهرب لهم في الأرض ولا في السماء ، ولما كان المهرب المتاح والممكن أمامهم هو الأرض ، إن كان ثمة هرب ، إذ لا قدرة لهم على صعود السماء والهرب فيها ، قدمت الأرض ، وجاء عطف السماء فيها زيادة في التعجيز .

ولعل في الآية نوعًا آخر مما نطلق عليه الإعجاز العلمي مما نلمح إليه من أن الإنسان في مرحلة من العصور سوف يتجاوز بإمكاناته العلمية نطاق الأرض ، فلا يظنن حينئذ أنه سيُعجز الله هربًا من عقابه فيما تجاوز عالم الأرض .

٧- قال تعالى في سورة الحديد : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ (الحديد:٤) .

٨- وقال في سورة سبأ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ (سبأ:١،٢) .

قدم الإخبار بما يلج في الأرض وما يخرج منها على علمه بما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، في الموضعين ، ولذلك وجهان من البلاغة : أولهما يقتضيه تناسب النظم ، والثاني يستدعيه ترتيب الألفاظ على وفق مشاهدات المخاطبين ، فما يقتضيه تناسب النظم أن كلا الموضعين سُبق بذكر السموات والأرض ، فجاء البدء بأحوال الأرض والحديث عنها متصلاً ؛ إذ هي آخر ما ذكر ، على طريقة قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ** ﴾ (آل عمران:١٠٦) فبدأ بتفصيل ما ذكر آخرًا ليقربه جزاءه ، وهو نهج مسلوك وطريقة معهودة في بيان العرب ، والوجه الثاني الذي يقتضيه ترتيب الألفاظ وفقًا لترتيب الأحداث هو ما أشار إليه الرازي بقوله : « قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء ، لأن الحبة تبذر أولا ، ثم تسقى ثانيًا »[1] .

٩- قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ** ﴾ (إبراهيم:٤٨) .

١٠- وقال جل شأنه : ﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾ (الحاقة:١٣-١٦) .

١١- وقال عز ذكره : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ** ﴾ (الزمر:٦٧) .

تقدمت الأرض في المواطن الثلاثة ، حيث كان الغرض هو الكشف عن عجائب القدرة الإلهية في تغيير معالم الكون يوم القيامة على غير ما اعتاد الناس رؤيته عليه ، بعد أن ظن الكافرون أنه عالم ثابت لا يمتد إليه الفناء ﴿ **نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ** ﴾ . هذه الطبيعة المتمثلة في الأرض بشموخها وثباتها ، وفي السماء بعظمتها واتساع ملكوتها ، والتي حسبها الكفار

---

(١) التفسير الكبير ٢٥/٢٤٠ .

مصدر الخلود الذي يفنى أجيال الناس ولا يفنى ، سيهدمها الله تعالى ليبني غيرها دليلاً على عظيم قدرته ، ولما كان ذلك من عجائب القدرة قدمت الأرض التي هي مستقر المخاطبين وهم أعرف بها ، لأن تغيير ما علمه الإنسان واعتاد رؤيته أدعى للعجب وأدهش ، وأدل على القدرة من تغيير ما جهله وغاب عنه ، ولا تزال عوالم السماء مجهولة للإنسان مهما بدا أنه صار قريبًا منها ، لذلك قدمت الأرض على السماء باعتبار أن تبديلها أقوى أثرًا في نفوس من يحيون عليها ويحفظون أدق معالمها ، يضاف إلى ذلك أن الحديث عن تبديل الأرض والسماء في الموضعين الأولين جاء عقب الحديث عن الأمم التي أهلكها الله وترك آثارها شاهدة عليها ، ومساكنهم التي خلفهم عليها من خاطبهم القرآن ، ليدفع الوهم بأن الأرض باقية خالدة تبتلع من عليها وتبقى ثابتة تتحدى الزمن ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ (إبراهيم:٤٥) ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ (الحاقة:٥-٨) . فما أجدر أن تقدم الأرض والمناسبة فيها .

١٢- قال تعالى : ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه:١-٥) .

تأخر ذكر السموات ليتسنى وصفها بما يكشف عن عظمتها وليتصل بها حديث الله عن العرش واستوائه عليه ، ثم إن تقديم الأرض يتناسب مع نفي الشقاء عن الرسول ـ عليه السلام ـ والأرض هي موطن الشقاء ، هذا إلى جانب ما يحدثه وصف السموات بالعلى من تناسق الفواصل ، وهو لون من الأداء الفني الأخاذ في موسيقى القرآن .

العقم والكبر :

من حسن أدب المتكلم ولياقة حديثه أن يقدم ما يراه قصوراً في نفسه على قصور الآخرين ؛ هضمًا للنفس وتقديراً لمشاعر الغير ، من ذلك ما جاء على لسان زكريا ـ عليه السلام ـ متعجبًا من بشرى الملائكة له بيحيى في سورة آل عمران ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ (آل عمران:٤٠) ، فقدم كبره وهو قصور في نفسه رآه مانعًا من الإنجاب في العادة ـ على عقم امرأته ، مع أن العقم أهم ، باعتباره المانع الأصيل الذي يستحيل معه الإنجاب فيما اعتاده الناس ، أما الكبر فلا يستبعد الإنجاب معه ، فجاء هذا التقديم دليلاً على كمال أدبه وحسن التخاطب ، مراعاة لمشاعر امرأته ، وتحاشيًا لإيذائها لو قدم ما هو مانع من الإنجاب فيها ، فقدم قصور حاله على قصور حال امرأته ، وهو نفس ما فعلته سارة ـ عليها السلام ـ حين بشرت بإسحاق فقالت : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (هود:٧٢) ، مقدمة ما هو قصور فيها على ما في زوجها من الكبر ؛ تأدبًا ورعاية لمشاعر زوجها .

أما ما جاء في سورة مريم على لسان زكريا مقدمًا فيه حال امرأته على حاله ، فذاك موضع له أسبابه ودواعيه ، حيث جاء قوله في تلك السورة : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم:٨) ، جاء عقب دعاء زكريا وقد أبان فيه عن حاله ، وما آل إليه من ضعف البنية ، وعوارض الشيخوخة ، وخوفه من ضياع ميراث النبوة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (مريم:٤) . فلما بشر بيحيى قدم حال امرأته لأن حاله كان معلوما مما سبق ، وأعاده بعد ذكر حال امرأته بصورة أبلغ ، مشيراً إلى أنه بلغ من الكبر حدًّا لا يرجى معه إنجاب ، فكأنما توسطت علة امرأته ما يشبه العلتين عنده ؛ ضعف البنية وبلوغه من السن حد اليأس من الإنجاب .

وأحسب أنني فيما قلت لا أذهب بعيداً عما قاله الإمام أبو السعود في عبارة بليغة موجزة ، قال تعليلاً للتقديم والتأخير في سورتي آل عمران ومريم : «لعل ذلك لما قد ذكر حاله في تضاعيف دعائه ، وإنما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل ، وأما هنالك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله ، فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته ، لما رأى المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب»[1].

الحياة والموت :

الأصل أن تتقدم الحياة على الموت باعتبار سبق الحياة في الوجود ، وهو ما جرى عليه نظم القرآن في معظم المواطن التي جمع فيها بين الحياة والموت ، من مثل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (الحج:٦٦) وقوله ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (الأعراف:١٥٨) . ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (الأعراف:٢٥) ، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ (المرسلات:٢٥،٢٦) ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢) .

غير أن هناك عدة مواطن في القرآن جاءت بعكس هذا الترتيب ، مقدما الموت على الحياة ، وهو ما نتصدى لسره الآن .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:١-٣) .

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢٥٦/٥ .

جاء تقديم الموت متناغمًا مع سياق ملتهب ، في موكب يعبر عن عظمة الله وتفرده بالخلق والإيجاد ، والقيام على شئون خلقه ضرًّا ونفعًا ، إفناء وإبقاء ، وتحيط بهذا الموكب نذر التحدي لآلهة مصنوعة بيد البشر تعبد من دون الله ، وهي لا حول لها ولا قوة . في هذا الجو الغاضب المشحون بالتحدي ، الملوح بالانتقام تعاون النسق القرآني على رسم صورة تُشيع في النفس ظلالاً من الرهبة ، وتجسد أمام أعينهم قدرة الله المتفردة وهيمنته الكاملة ، وتنزع من عقولهم وضمائرهم وهم الإشراك بالله . تجد ذلك في بدء السورة بما يدل على تعاليه وقدسيته ﴿ تَبَارَكَ ﴾ وفي الاكتفاء بالإنذار دون شَفْعِه بالتبشير ، كما جاء في آيات أخرى ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ وفي جعل الإنذار للعالمين وليس للناس ، ثم في تقديم الضر على النفع ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ ؛ لأن العجز يبدو أكثر في عدم القدرة على جلب الضر ، وما أكثر من يستطيعون الضر ولا يقدرون على النفع ، ثم إن تقديم الضر فيه تلويح ببطش الله وانتقامه ، وأخيرًا جاء تقديم الموت على الحياة ، لأنه أدل على العجز أيضًا ، إذ إنه ربما يتصور أن الإماتة بمعنى التخليص من الحياة أمر بمقدور غير الله أن يصنعه ، بخلاف الحياة فإن ذلك مِمَّا لم يدَّعِه أحد لغير الله .

وهكذا جاء النظم غاية في التناسب بين مفرداته ، والتآخي بين جمله كما جاء التقديم والتأخير محققًا للغرض الذي يهدف إليه النص القرآني . وقد أشار الألوسي إلى بعض هذا فقال : « وتقديم الموت لمناسبة الضر المقدم »[1].

وفي جو شبيه بهذا الجو وسياق قريب من هذا السياق بدأ الله سورة الملك بقوله ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك: ٢،١).

---

(١) روح المعاني ٢٣٤/١٨ .
(٢) البحر المحيط ٢٩٧/٨ .
(٣) التفسير الكبير ٥٥/٣٠ .

قدم الله تعالى بين حديثه عن الخلق ما يدل على عظمته وتعاليه ، وانفرد بتدبيره ملكه وقدرته المطلقة على التصرف فيما خلق بالإعدام والإيجاد ، ولما كان الغرض من خلق الإنسان ـ كما صرحت به الآية ـ هو ابتلاءَه ليتبين إحسانه وإساءته ، وليحاسب على ما عمل له من خير أو شر ، قدم الموت لذلك باعتباره مقدمة الجزاء ، وتذكيراً للأحياء بنهايتهم المحتومة ، وما ينتظرهم من ثواب أو عقاب . وهو ما عبر عنه أبو حيان بقوله : « وقدم الموت لأنه أهيب في النفوس »[٢] ، وأكده الرازي في أحد الوجوه الأربعة التي ذكرها تعليلا لتقديم الموت وأحسبه أقربها إلى الصواب قال : « إنما قدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه ، فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض أهم »[٣].

وقريب من هذا الغرض تقدم الموت في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴾ (النجم:٤٤) ، حيث وقعت الآية في سياق يذكر الناس بآخرة يحاسبون فيها على ما قدمت أيديهم ، فناسب أن يقدم الموت تحقيقًا لهذا الغرض ، وهذا هو السياق : ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا** ﴾ (النجم:٣٩-٤٤) هذا إلى جانب ما يحرص عليه القرآن من تناسب الفواصل فيما يخدم المعنى ويضفي عليه ثوبًا من الجمال الموسيقي .

أما قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ** ﴾ (طه:٧٤) . وقوله ﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ** ﴾ (الأعلى:١١-١٣) فإن تقديم الموت فيه لأنه هو رغبتهم التي يجأرون إلى الله تعالى أن يحققها لهم بوضع نهاية لعذابهم كما تنطق به الآية في قوله تعالى : ﴿ **وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ** ﴾ (الزخرف:٧٧) فالبدء بالموت لإقناطهم فيما هو رغبتهم الأصلية تحقيقًا لزيادة آلامهم النفسية والجسدية .

الرحمة والعذاب :

عدَّ السيوطي من التقديم للكثرة تقديم الرحمة على العذاب ، حيث وقع في القرآن غالبًا[1] .

وقد أحصيت ما ورد في القرآن على صورة عطف بالواو فوجدت خمسة مواقع تقدمت فيها الرحمة في مقابل خمسة تقدم فيها العذاب ، وهذا دليل على أن النظم الحكيم لا تحكمه القواعد العامة ، وإنما يشي بأسراره همس السياق ، ويسفر عنها وحي المناسبات ، فحيث يكون الغرض هو استمالة النفوس وتقوية الرجاء ، وانتزاع اليأس ، والتأكيد على لطف الله تعالى بعباده ، والتجاوز عن زلاتهم تتقدم بشائرُ الرحمة نُذُرَ العذاب ، ملوحًا ببطش الله ، ومخوفًا من عقابه ، وثمة أسرار أخرى لا يكشف عنها سوى إجالة النظر ، وإعمال الفكر في الوقوف على أغراض الكلام ومراميه .

من ذلك تقدم العذاب على الرحمة في قوله تعالى : ﴿ **وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأعراف:١٥٥،١٥٦) .

ربما يظن المتعجل أنه مقام يستدعي تقديم الرحمة ، ردًّا على ضراعة موسى ، وتعزية له عما أصابه من قومه . لكن المتأمل لأعطاف النص يدرك أن ما عليه التلاوة هو الأوفق بالمقام ، والأكثر تجاوبًا مع نسق الكلام قبله ، حيث سبقه حديث عن عبادة بني إسرائيل للعجل من دون الله ، وما صحب ذلك من غضب موسى وأسفه ، وما أعقبه من تهديد ووعيد ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ**

(١) معترك الأقران ١/١٧٩ .

﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ، ولكن الله لم يقطع الرجاء عمن تاب وعمل صالحًا ، فعقب الغضب بالرحمة ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وتجاوب موسى في دعائه مع هذا الموقف وما يحيط به من نذر العقاب ، ودلائل السخط والغضب ، فقدم الإضلال على الهدى وهو يفوض أمرهم إلى ربه ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ ، ثم جاء رد الله على دعاء موسى مقدمًا فيه العذاب على الرحمة ، ليطرد نسق الكلام ، ويتناسب أوله مع آخره ، ويصل إلى الغاية المنشودة من تصوير لحظة من لحظات الغضب الإلهي على قوم غمرهم الله بنعمه ، وتجاوز كثيراً عن جرائمهم ، إنها لحظة هادرة بالسخط تزاحم فيها نذر العذاب لتستر وراءها سحائب الرحمة .

ومثل هذا الموطن ما جاء في سورة المائدة إثر بيان حكم السرقة ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (المائدة:٣٨-٤٠) .

يقول الألوسي : « كان الظاهر لحديث (سبقت رحمتي غضبي) تقديم المغفرة على التعذيب ، وإنما عكس هنا لأن التعذيب للمصر على السرقة ، والمغفرة للتائب منها ، وقد قدمت السرقة في الآية أولا ، ثم ذكرت التوبة بعدها ، فجاء اللاحق على ترتيب السابق »[1] .

وتقدم العذاب كذلك حين استدعاه مقام الوعيد للكافرين من قوم إبراهيم ، حيث ذكر الله طرفًا من قصة إبراهيم مع قومه بدأها بقوله : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ (العنكبوت:١٦،١٧) ، ثم

(١) روح المعاني ٦/١٣٥ .

عقب ذلك بقوله ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (العنكبوت:٢١،٢٢) هذا التقديم للعذاب يعكس ما عاناه إبراهيم من كفر قومه وعنادهم مما جعله يؤمن بأنه لا يفلح معهم غير العقاب ، ولا يستحقون رحمة الله إلا إذا كانت هذه حكمته جل شأنه ، ولعلك تلاحظ معي كيف تناسق نظم الآيات ، فقدم الأرض على السماء كما قدم العذاب على الرحمة ، وفي كل منهما مخالفة الأصل في الترتيب ؛ إيحاء بانتكاسة نفوس القوم وانعكاس الموازين في مفاهيمهم ، يقول الفيروزابادي : « قوله ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ بتقديم العذاب على الرحمة في هذه السورة فحسب ، لأن إبراهيم خاطب به نمرود وأصحابه ، فإن العذاب واقع بهم في الدنيا »[1] .

وأصاب فيما قال ، غير أن قوله ــ في هذه السورة فحسب ــ ينقضه تلك المواضع المتعددة والتي نستقصي ذكرها الآن .

أما قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (المائدة:١١٨) فقد جاء على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ في شأن من ادعى له الألوهية كي ينفي عن نفسه ما نسب إليه من دعوتهم إلى تأليهه وعبادته : ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ ﴾ ، ثم فوض أمرهم إلى الله تعالى مقدمًا التعذيب على الرحمة ، كمن ينفي عن نفسه تهمة التواطؤ معهم ، ويظهر بصورة المنصف الذي يقف منهم موقف الحكم العادل الذي أيقن أن العدل في تعذيبهم ، غير أنه يصادر على الله تعالى إذا اقتضت حكمته أن يرحمهم ويتجاوز عن جريمتهم ، ولذا جاء تذييل الآية مقدمًا فيه ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ الغالب على أمره ، فلا يعجزه إنزال العذاب بمن شاء ، ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ الذي قد تخفى علينا حكمته في رحمة من نراه جديراً بالعذاب .

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٣٦١/١ .

والموطن الخامس الذي تقدم فيه العذاب قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد: ٢٠).

سياق الآية في مقام التحذير من زهرة الدنيا وفتنتها ، وتشاغل الناس بها عن الآخرة ، وما فيها من عظيم الثواب وأليم العقاب ، وذلك يتطلب الإيقاظ بعنف ، وارتفاع صوت التهديد والوعيد ، تنبيهًا للغافلين ، وزجرًا لمن ألهتهم الدنيا عن طلب الآخرة ، فكان تقديم العذاب ووصفه بالشدة هو ما استدعاه مقام الانغماس في اللهو واللعب ، والتلهي بالقليل المنقطع عن الكثير الدائم .

الظالمون والسابقون :

ومما جاء في الذكر الحكيم مخالفًا قاعدة تقديم الأفضل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر: ٣٢) .

فقد تقدم الظالم وهو المفضول على المقتصد والسابق ، مما جعل الزمخشري يتصدى للكشف عن سر التقديم فقال : « فإن قلت : لم قدم الظالم ، ثم السابق؟ قلت : للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ، والسابقون أقل من القليل »[1] .

راق هذا الرأي لمن جاء بعد الزمخشري ، فتردد كثيراً على ألسنة المفسرين ، ورجالات البلاغة ، واعتبرت الكثرة أصلاً يراعى في التقديم ، فإذا تعارضت مع وجوب تقديم الأفضل فللناظم أو الناثر الخيار في تقديم أيهما شاء ، يقول ابن

---

(١) الكشاف ٣/٣٠٩ .
(٢) المثل السائر ٢/٢٣١ .
(٣) البلاغة القرآنية ص ٦١١ .

الأثير بعد أن علل التقديم في الآية السابقة بالكثرة : « ولو عُكِسَتْ القضية لكان المعنى أيضًا واقعًا في موقعه ، لأنه يكون قد روعي فيه تقديم الأفضل فالأفضل . ولنوضح لك في هذا وأمثاله طريقًا تقتفيه فنقول : « اعلم أنه إذا كان الشيئان كل واحد منهما مختصًّا بصفة ، فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت في الذكر ، كهذه الآية ، فإن السابق بالخيرات مختص بصفة الفضل ، والظالم لنفسه مختص بصفة الكثرة ، فقس على هذا ما يأتيك من أشباهه وأمثاله »[٢].

فهل يعني هذا أن تقديم السابق بالخيرات وتقديم الظالم سواء في بلاغة النظم الحكيم ، أو ليس ثمة غرض تهدف إليه الآية من تأخير السابق بالخيرات؟ لقد تكررت هذه المقولة كثيرًا حتى على ألسنة الرواد من أساطين البلاغة ومن أفنوا أعمارهم في استجلاء أسرار الإعجاز في الكتاب العزيز ، فكلما استغلق على أحدهم سر التقديم في موضع علله بأن الواو لا تقتضي ترتيبًا ، فالتقديم والتأخير معها سواء ، تكرر هذا من الزمخشري وغيره من حذقة المفسرين ، وقد سبق الدكتور محمد أبو موسى إلى رد ما قاله الزمخشري ، كما فند دعوى ابن الأثير هذه بقوله : « ولا شك أن هذا رأي آفل ، ونظر قاصر ، وذلك لأنه تجاهل لمقتضيات الأحوال ، ومتطلبات المقامات »[٣].

ليعد سلك النظم الكريم في هذه الآية نهجًا آخر في ترتيب المعطوفات غير تقديم الأفضل والأكثر ، فإن الغرض الأساسي في سياق الكلام هذا هو امتداح السابقين بالخيرات وبيان ما أعد الله لهم من حسن الجزاء ، وليس الغرض المقارنة بين الشركاء ، بدليل أنه سكت عن بيان جزاء الفريقين الآخرين ، وما قبل هذه الآية كان ثناء على من أحسنوا استقبال كتاب الله تلاوة وعملا ، وبيانا لما وعدهم الله على ذلك من الأجر الكبير ، ولا حديث عن غيرهم ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ** ﴾ (فاطر:٢٩)، ثم جاء الحديث عن ورثة هذا الكتاب

وتصنيفهم إلى ثلاثة أقسام ، بادئًا بالأدنى ومنتهيًا بالأعلى ، على سبيل الترقي ، لتخص السابقين بما ينتظرهم عند الله من التكريم والنعيم المقيم ، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (فاطر:٣٢،٣٣)، ومحال أن يغير ترتيب الألفاظ في الآية من غير أن يفسد النظم وينفرط عنده الحكم ، لأنه إما أن يقرن السابقون بما أجرى الله عليهم من أوصاف ، وما أتبعهم من وعد بحسن الجزاء وحينئذ يطول الفصل بينهم وبين القسيمين الآخرين طولاً فاحشًا يخل ببلاغة النظم الكريم ، وإما أن يجردوا مما تبعهم من حديث فتذهب الغاية ، ويضيع الهدف من امتداحهم وبيان منزلتهم عند ربهم .

إن الترتيب على سبيل الترقي من الأدنى إلى الأعلى الذي جاء عليه نظم الآية نهج مسلوك في لغة العرب ، كما أن البدء بالأفضل طريق من طرقها ، ولكل موضعه ودواعيه ، وقد أشار ابن المنير إلى النهجين فقال : « وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم ، فقُدِّم ، ووجه عكس هذا الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ومنه قوله :

بَهَالِيلُ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ عَلِيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ

ولا يقال إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضي رتبة ، فإن هذا غايته أنه عُذْر ، وما ذكرناه بيانٌ لما فيه من مقتضى البديع »[1].

يدل لما ذكرناه من أن هذه الكثرة ليست هي الداعي إلى التقديم أن الظالمين والمحسنين اجتمعا في صورة عطف ، وتأخر الظالمون ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ (الصافات:١١٣) كما اجتمع الفاسقون والمهتدون وتأخر الفاسقون

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٣/٣٣٤ .

مع التصريح بكثرتهم في قوله جل شأنه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد:٢٦).

المقام وحده هو الذي استدعى تقديم المحسنين والمهتدين في الموضعين ، وليست الكثرةُ أو الفضلُ مجالَ الاختلاف في الترتيب ، فلما جاءت كل منهما في موطن امتنان من الله تعالى على من ذكر من الأنبياء ، ناسب أن يقدم المهتدون والمحسنون من ذريتهم ، ووجود الظالمين والفاسقين في ذريتهم ، كان لهم من سبق الصالحين ما يعوضهم عن الفاسقين ، ويعزِّيهم عنهم ، وتقديم الفاسق والظالم يتنافى ومقام الامتنان والثناء ، ولو كان الحديث في موقف تأنيب أو توبيخ على تقصير أو مخالفة ، لاستوجب الأمر عكس هذا الترتيب بغض النظر عن الكثرة أو الفضل .

الكافر والمؤمن :

ومما استشهد به على تقديم الأكثر وتأخير الأفضل قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ (التغابن:٢) وأحسب كذلك أن الكثرة ليست محور التقديم في الآية ، حيث إنها جاءت في معرض استغناء الله عن خلقه ، وإعلامهم بأنه ليس مفتقراً إلى عبادتهم ، إذ لا يضره كفر من كفر ، كما لا ينفعه إيمان مؤمن ، فكل ما في الكون يسبح بحمده ، ويخر ساجداً لعظمته ، ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن:١) هكذا كان البدء ، ثم تعالت نبرة التهديد والوعيد بعد هذه الآية إلى أنه قال : ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (التغابن:٦) وتوسط هذا السياق الهادر ـ بالوعيد والإنذار ـ قوله ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ بتقديم الكافر ليتناسب مع الغاية من إظهار غنى الله تعالى عن خلقه وعدم احتياجه إلى طاعة الطائعين أو تضرره

من كفر الكافرين ، فمهما كثر الكافرون فأين هم من ملك في السموات والأرض يسبح بحمد الله ؟

الناس والأنعام :

قد يتعارض مع تقديم الأفضل كون المفضول سببًا فيه ، فيختص كل منهما بصفة توجب له التقدم في الذكر ، فأيهما يقدم؟

يرى العلوي صاحب الطراز أن للناظم أو الناثر أن يقدم أيهما شاء ، وطبق ذلك على قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحۡيِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان:٤٨،٤٩) .

يقول العلوي : « فقدم حياة الأرض لأنها سبب في حياة الخلق ، فلأجل هذا قدمت ، لاختصاصه بهذه الفضيلة ، ثم قدم حياة الأنعام على حياة الناس ، لما فيها من المعاش للخلق ، والقوام لأحوالهم ، فراعى في التقديم ما ذكرناه ، ولو قدم سقي الخلق على سقي الأنعام لاختصاصهم بالشرف ، وقدم سقي الأنعام على الأرض لكان له وجه ، لأن الحيوان أشرف من غيره ، فكل واحد منهما مختص بفضيلة يجوز تقديمه لأجلها ، فلأجل هذا ساغ فيه الأمران كما ترى »[1].

وأحسب أن الشرف والفضل لا مجال لاعتبارهما هنا سببًا في التقديم أو التأخير ، ولا يحسن في الآية بوجه أن يتقدم الإنسان على الأنعام لفضله ، ذلك أن إخبار الله تعالى بأثر الماء في إحياء الأرض بالنبات وأثره في حياة الأنعام ليس إلا امتنانًا على الإنسان بما أفاض الله عليه من مقومات وجوده ، متمثلاً في النبات والأنعام ، فإليه تصير منافعهما ، وهو الغاية من إرسال الرياح وإنزال الماء وما قبله وسائل ومقدمات ، أو هي أسباب لبقائه واستمرار حياته ، ولا يحسن أن تسبق النتائج مقدماتها ، كما لا تتقدم المسببات على أسبابها .

---

(١) الطراز ٢/٧٤ .

وإذا كانت هذه الآية تحدثت عن سقي الأنعام والناس فإن ثمة آية أخرى تحدثت عن طعامهما من نبات الأرض الذي حيي بسوق الماء ، وجاء ذكر الأنعام فيها مقدمًا كذلك باعتبارها مطعوم الإنسان . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة:٢٧) ، تأخر الإنسان على الأنعام ، لأنه يأكل منها كما يأكل من الزرع ، فهي لا تأكل في حقيقة الأمر لذاتها ، وإنما تأكل ليعود نفعها في النهاية على الإنسان ، فالأنعام أثر من آثار الماء كالزرع تمامًا ، وهما ثمرة يجنيها الناس في النهاية .

ولما تغير الغرض في موطن آخر تغير معه ترتيب النظم ، فتقدم الإنسان على الأنعام ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ (يونس:٢٤) .

ليس المقام مقام امتنان من الله على الناس ، وإنما هو مقام التحذير من فتنة الدنيا وشهواتها ، ولا مجال للحديث عما سخر الله للإنسان من نبات وحيوان ، ولما كان الإنسان هو المستمتع بنبات الأرض أصالة ، والمستحوذ على أطيب الثمرات ، والمفتون بزهرة الدنيا ونعيمها لا غرو أن يقدم على الأنعام ، كما تقدم كذلك في قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (النازعات:٢٧-٣٣).

إذ إن تمهيد الأرض وتهيئتها للإقامة والمعاش وإجراء الماء والنبات فيها إنما هو ليستمتع الإنسان بخيراتها ، أما تمتع الأنعام فهو تابع لاستمتاع الإنسان ، ولو علمت الأنعام أن حتفها في متعتها هذه لما أقبلت على هذا التمتع ،

فالتصريح بقوله : ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ يستدعى تقديم الناس لأنهم المقصودون بالاستماع ، ولذلك أفردهم الله تعالى في كثير من آياته التي تحدثت عما سخر الله لهم في سمائه وأرضه من مثله قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (إبراهيم:٣٢) .

التقديم وموسيقى الفواصل :

إذا كان القرآن شديد الأخذ ، قوي التأثير بحسن نظمه وتآخي ألفاظه ومعانيه فإنه شديد الأسر بموسيقاه وتناسق مقاطعه وتناغم قرائنه وفواصله .

إن آية الإعجاز في كتاب الله أنه يجمع بين الجمال في شكله ومضمونه معًا ، فلا يطغى بهرج اللفظ وحلاوة التنغيم على دقة المعاني وتناسق النظم ، إنها موازنة دقيقة لا يقدر عليها إلا من أنزل الكتاب بالحق والميزان .

وكثيرًا ما يقع في القرآن تقديم لفظ على آخر ، أو استبدال لفظ بآخر ، رعاية لتناسق الفواصل ، أو تلاؤم القرائن طولاً وقِصَرًا ، إلا أن ذلك لا يكون على حساب انتظام المعاني وسلامة الفكرة ووضوحها ، كما يحدث غالبًا في نظم أرباب الأسماع من البشر ، على أن هذا التقديم والتأخير لرعاية الفواصل كثيرًا ما يصحبه نكتة تتعلق بالسياق ، ويستدعيها المقام وإن خفيت علينا في بعض الأحيان .

من مواطن التقديم والتأخير لرعاية الفواصل ، مما يكاد يجمع عليه المفسرون ورجالات البلاغة ، قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ (الأعراف:١٢٠-١٢٢) . وقوله في سورة الشعراء : ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ (الشعراء:٤٦-٤٨) فقدم موسى في السورتين ، ثم قال في سورة طه ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (طه:٧٠) فقدم هارون ، والحكاية واحدة ، والقائل

هو نفس القائل ، ولنقرأ ما قاله المفسرون في تعليل هذا التقديم والتأخير ، يقول الجمل نقلاً عن السمين : «وقدموا موسى في الذكر على هارون ، وإن كان هارون أسن منه لكبره في الرتبة ، أو لأنه وقع فاصلة فنا ، ولذلك قال في سورة طه : ﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ لوقوع موسى فاصلة ، أو لكون كل طائفة منهم قالت إحدى المقالتين ، فنسب البعض إلى المجموع في سورة ، وفعل بعض آخر إلى المجموع في أخرى»[1].

ولا يستقيم لنا من التعليلات الثلاثة إلا رعاية الفواصل ، إذ إن كبر موسى في الرتبة لا يستدعي تقديمه في سورة طه ، كما أن اختصاص سورة طه بقول طائفة قدمت هارون لا علة له إلا أن يكون لتلاؤمه مع الفواصل .

وقال الرازي معللاً تقدم هارون في آية طه : «الفائدة الأولى : وهي أن فرعون ادعى الربوبية في قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ فلو أنهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول إنهم آمنوا بي لا بغيري ، فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة ، والدليل عليه أنهم قدموا ذكر هارون على موسى لأن فرعون كان يدعي الربوبية لموسى بناء على أنه رباه في قوله ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ ، فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون ، لا جرم قدموا ذكر هارون على موسى قطعًا لهذا الخيال»[2].

وهذه من الرازي نكتة لطيفة ، لكن يعكر صفوها أن القوم قدموا موسى في الموضعين الآخرين فما سر هذا الاحتراز عن التوهم الباطل في سورة طه دون أختيها؟

وقد استبان لي بعد طول نظر وتأمل في سياق السور الثلاث أن سورة طه حظي فيها هارون باهتمام واضح لم يحظ به في السورتين الأخريين ، فسورة الأعراف تبدأ قصة موسى فيها بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ

---

(١) الفتوحات الإلهية ١٧٧/٢ .

(٢) التفسير الكبير ٨٧/٢٢ .

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِۦ ﴾ (الأعراف:١٠٣) دون ذكر لهارون ، ثم تمضي القصة في حوار بين موسى وفرعون ، ويختفي هارون تمامًا ، حتى الملأ من قوم فرعون يفردون موسى فيقولون ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾(الأعراف:١٠٩) وفي سورة الشعراء وإن حظي هارون فيها بحديث أكثر وأشرك في الرسالة مع موسى ﴿ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء:١٥،١٦) ، فإن هذا الإشراك لم يأت بصيغة تدل على استقلال هارون بالرسالة ، حيث جاء لفظ الرسول مفردًا لم يُثَنّ ، بما يعطي انطباعًا بأنه تابع لموسى ومعاون له ، ثم إن فرعون وملأه تجاهلوا في خطابهم لموسى هارون تمامًا ، كما نجده في قول فرعون : ﴿ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا ﴾ إلى أن قال : ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾ (الشعراء:٢٩) وقول الملأ : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ ﴾ (الشعراء:٣٤،٣٥)، هارون إذن في سورة الأعراف لا تكاد تسمع له ذكرًا في الحوار ، وفي سورة الشعراء لم يظهر هارون إلا في استجابة الله لدعاء موسى أن يشرك هارون معه في الرسالة ، ثم يختفي في الحوار تمامًا ، أما في سورة طه فإنك تحس بوجود هارون من بدء الإرسال ، وإلى ما بعد المعركة التي انتهت بإيمان السحرة ، وتنكيل فرعون بهم ، فليس غريبًا أن يتقدم هارون على موسى إظهارًا للاهتمام به ، وإبرازًا لدوره في مؤازرة أخيه ، ودليلنا من السياق على ما نقول هذا الخطاب من الله تعالى في بدء الإرسال ، والذي يعطي فيه لهارون دورًا بارزًا ، ومشاركة فعالة ، ﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ (طه:٤٢-٤٧) .

فالخطاب من الله تعالى لموسى وهارون معًا ، والخطاب إليه منهما معًا أيضًا ، ثم إن صيغة الإرسال جاءت بالتثنية إبرازًا لدور هارون واستقلاله بالرسالة بخلافها في سورة الشعراء .

وفي الحوار الذي دار مع فرعون نجده يخاطبهما بصغية التثنية ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ** ﴾ (طه:٤٩) ، والملأ من قوم فرعون يقولون ﴿ **إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ** ﴾ (طه:٦٣) بخلاف قولهم في سورتي الأعراف والشعراء ﴿ **إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم** ﴾ .

فلا غرو أن يقدم هارون في هذه السورة التي أبرزت دوره الواضح ومشاركته الفعالة تأكيدًا للاهتمام به والتركيز على دوره في مؤازرة موسى ، هذا إلى جانب ما يُحْدِثه توافق الفواصل من حسن الإيقاع وجمال التنغيم ، وهو من العوامل شديدة الأثر في نفس العربي وأحد ملامح الجمال في لغة العرب. ولم يقف الجمال الموسيقي عند الفاصلة وحدها ، بل تعداه إلى التوازن بين ألفاظ القرائن ومساحاتها طولاً وقِصَرًا ، كما عبر عنه الخطيب الإسكافي فقال : « واختير في سورة الأعراف ﴿ **وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ** ﴾ واختير في سورة طه ﴿ **وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ** ﴾ ومثله قوله ﴿ **فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ** ﴾ في سورة الأعراف وسورة الشعراء لتكون الفاصلة فيها مساوية للفواصل قبلها ، وبإزاء ﴿ **سَٰجِدِينَ** ﴾ قوله ﴿ **فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا** ﴾ في سورة طه كذلك ، ومثله قوله ﴿ **قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ** ﴾ في السورتين للفواصل التي حملت هذه عليها ، وقال في سورة طه : ﴿ **قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ** ﴾ فقدم هارون ليكون موسى فاصلة مثل الفواصل المتقدمة ، فهذا ونحوه مما يراعى في الفواصل »[1] .

---

(١) درة التنزيل ١٧٣، ١٧٤ .

ومما جاء التقديم فيه رعاية للفواصل قوله تعالى ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم:٢٤،٢٥)، حيث قدم الآخرة مراعاة للفاصلة ، عكس ما يقتضيه الترتيب الوجودي ، وهو لون من جمال اللفظ صحبه داع آخر يتعلق بالغرض المسوق له الكلام ، حيث إن الآية ترد على مزاعم المشركين في أن هذه الأصنام التي يعبدونها تضمن لهم النجاة في الآخرة بشفاعتها عند الله تعالى ، فاقتضى ذلك تقديم اختصاصه بامتلاك الآخرة وعدم منازعته فيها ؛ قطعًا لهذا الوهم وتلك الأماني الباطلة .

يقول الألوسي : « وقدمت الآخرة اهتمامًا برد ما هو أهم أطماعهم عندهم من الفوز فيها ، ولذا أردف بقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ ، وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة ـ عليهم السلام ـ موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية »[1] .

وعلى غرار هذه الآية قوله تعالى في سورة الليلِ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (الليل:١٢،١٣)، حيث إن تقديم الآخرة رعاية للفاصلة صحبه ما يستدعي التقديم من متطلبات السياق ، فالآيات حديث عن اختلاف أعمال الناس وما يترتب على ذلك من حسن الجزاء في الآخرة أو سوء العقاب ، وجاء تقديم الآخرة لزيادة الترغيب والترهيب باعتبارها دار الجزاء ، وقد سبق هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ (الليل:٥-١١).

أما تقديم الآخرة على الأولى في قوله تعالى متحدثًا عن فرعون ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ (النازعات:٢٥) فقد سبقها قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ

(١) روح المعاني ٢٧/٥٨ .

﴿ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النازعات:١٧-٢٥)، فالأولى كما قال أبو رزين فيما نقله أبو حيان « كفره وعصيانه والآخرة قوله أنا ربكم الأعلى[1] ، والكفر والعصيان مقدمان في السياق».

ولكن النظم الكريم جاء بعكس هذا الترتيب ؛ فقدم الآخرة مراعاة للفاصلة من ناحية ، وإيماء إلى سوء قولته وشناعتها من ناحية أخرى ، حيث ادعاؤه الربوبية أدل على طغيانه وفساد عقله من تكذيبه لموسى وكفره بدعوته ، وكأن هذه المقولة هي التي استدعت تنكيل الله به وتعجيله بهذا العقاب الشنيع ، غرقًا في الدنيا وحرقًا في الآخرة .

ومما جمع فيه بين التناسب الموسيقي ، متمثلاً في رعاية الفواصل ، والتناسب المعنوي ، قوله تعالى في خطاب آدم من سورة طه ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (طه:١١٨،١١٩) .

فإن ظاهر الترتيب أن يقرن الظمأ بالجوع والضحو بالعري ، لكن القرآن عدل عن ذلك مراعاة لتناسب الفواصل من جانب ، وتأكيدًا على خطر العري من جانب آخر باعتبار الظمأ متممًا للجوع والضحو مُتممًا للعري ، والمقصود أصالة حمايته من شقوتي الجوع والعري ، بدليل أنه في حكاية هذه القصة من سورة الأعراف ، وفي هذه السورة ، لم يذكر القرآن مما ترتب على عصيان آدم من العقاب سوى العري ، فقال هنا : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (طه:١٢١) .

وقال في سورة الأعراف : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف:٢٢) ، فكأن العقاب الذي لحق بآدم وحواء هو هذا العري وبدو السوأة ، وهو أشد عقاب وآلمه بالنسبة لأبي البشر

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٢٤ .

وزوجه ، فلا عجب أن يتقدم العري تنبيهًا على أهميته كلون من الشقوة التي حماه الله منها في الجنة .

وقد ذكر ابن المنير وجهًا من البديع في هذا الترتيب يسمى قطع النظير عن النظير إلى جانب تناسب الفواصل ، وإليك ما قاله وهو من الرائق المعجب . قال : « وفي الآية سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير ، وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كُلاً بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة ، وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديمًا وحديثًا ، فقال الكندي الأول :

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خلْخَالِ
وَلَمْ أَرْشُفِ الزِّقَ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فقطع ركوب الجواد عن قوله : لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً ، وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكأس مع التناسب ، وغرضه أن يعدد ملاذَّه ومفاخره ويكثرها ، وتبعه الكندي الآخر فقال :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ[1]

* * *

(١) الإنصاف ٢/٥٥٦ .